جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم النحو والصرف والعروض

دور القافية في بناء البيت الشعري
دراسة عروضية تركيبية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من الباحث

أحمد حمودة موسى
المعيد بالقسم

بإشراف

الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف

چ ﺎً پ پ پ چ

فاتحة كل خير

وتمام كل نعمة

أتوجه به إلى أستاذي الكبير الكريم /**أ. د. محمد حماسة عبد اللطيف**.

الذي منح فأسبغ، ونصح فأبلغ، ولم يضنِن عليّ بجهد أو وقت، وكانت إضاءاته الثرية مصدرا لفكرة هذا البحث ورافدا له على طول الطريق.

وإلى الأستاذين الفاضلين/**أ. د. محمد عبد المطلب مصطفى، و أ. د. أحمد محمد عبد العزيز كشك**.

على تفضلهما بقبول قراءة هذا البحث وتوجيه صاحبه.

وفّق الله الجميع إلى ما يحب ويرضى.

مقدمة

يتوقف الدرس اللغوي الحديث ـ باختلاف فروعه ومدارسه ـ كثيرا أمام مطلب واحد كبير، هو فهم طبيعة اللغة وكيفية عملها.

وفي إطار هذا المطلب العام تتعدد اختصاصات الدارسين واتجاهاتهم في تناول جوانب اللغة، حيث يتجه قسم كبير منهم إلى محاولة كشف طبيعتها وفلسفة بنائها من خلال دراسة النص الشعري الذي يمثل أحد أهم منتجات اللغة ـ إن لم يكن الأهم ـ.

وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة محاوِلةً الوصول إلى فهم لدينامية الإبداع الشعري وتفسير لحركته البنائية من خلال دراسة دور القافية في بناء البيت الشعري بوصفها عنصرا عروضيا مؤثرا في البناء، وهو دور متأصّل نظريا استنادا إلى متوالية منطقية مُفادها أنه إذا كان البيت الشعري بنية لغوية ذات خصوصية لخضوعه لمتوالية كمية فنية ـ يمثلها الوزن ـ فإن قافية البيت تزيد هذه الخصوصية لما تتميز به من خصوصية كيفية ـ تمثلها قوانينها الصوتية ـ توجه حركة بناء البيت كله في سبيل مراعاتها والحفاظ عليها، كما سيأتي تفصيله.

أهم الدراسات السابقة:

تناولت القافيةَ في إطار البيت دراساتٌ متعددة، من أهمها:

١. "القافية ودورها في تركيب الجملة في الشعر". رسالة دكتوراه للباحث. عصام عيد أبو غربية، بإشراف الأستاذ الدكتور. محمد حماسة عبد اللطيف.

وهذه الدراسة ـ برغم قرب عنوانها من عنوان هذا البحث ـ بعيدة المنتجع عنه؛ إذ تتناول ـ فقط ـ عوارض التركيب التي تنال آخر البيت حيث القافية، ولهذا فقد قسمها صاحبها إلى ثلاثة فصول؛ حشد في أولها شواهد للحذف، وفي الثاني شواهد للتقديم والتأخير، وفي الثالث شواهد للفصل بين عناصر الجملة.

٢. "علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي". رسالة دكتوراه للباحث. محمد جمال صقر، بإشراف أستاذنا الدكتور. محمد حماسة عبد اللطيف.

وهي دراسة مبنية على ملاحظة بعض المشابه بين البناء النحوي في الجملة والبناء العروضي في الشعر، ودراسة العلاقة بين كل من: البيت والجملة، والقافية والكلمة، والزحاف والعلة والضرورة.

٣. "الصيغ الصرفية وملاءمتها لأضرب البحور العروضية". رسالة ماجستير للباحث. سليمان إبراهيم البلكيمي، بإشراف الأستاذ الدكتور. أحمد كشك.

وهي دراسة عروضية إحصائية بالدرجة الأولى تقوم على إحصاء صور التوافق بين الصيغ الصرفية وتفعيلة الضرب على اختلاف صورها في بحور الشعر، من خلال مجموعة مختارة من دواوين الشعر القديم.

٤. "القافية والأصوات اللغوية". للأستاذ الدكتور. عوني عبد الرءوف، وهي دراسة قيمة تضمنت حديثا عن ضرائر القافية ودورها في اختيار الكلمات وتأثيرها على بنية الكلمة المفردة وغير ذلك.
٥. "القافية تاج الإيقاع الشعري". للأستاذ الدكتور. أحمد كشك، وقد تناول فيه قضايا القافية الكمية والكيفية وما يطرأ عليها من ظواهر المخالفة وما يلحقها من التغييرات والترخصات، وكان له في كل هذا آراء وأفكار مثمرة.

٦. أما أقرب الدراسات إلى موضوع هذا البحث فهي كتاباتُ الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف وإضاءاته المتفرقةُ في كتبه: الجملة في الشعر العربي (الفصل الثاني: الجملة والقافية)، واللغة وبناء الشعر (الفصل الخامس: من قضايا بناء الشعر)، وبناء الجملة العربية (الفصل الرابع: بناء الجملة في الشعر القديم)، والبناء العروضي للقصيدة العربية (الفصل الأول من الباب الثاني: القافية ودورها في بناء الشعر).

وقد استقى البحث فكرته من هذه الكتابات، وانطلق منها في اختيار وجهة هذه الدراسة.

خطة الدراسة:

تتناول هذه الدراسة دور القافية في بناء البيت الشعري من خلال فصول ثلاثة مسبوقة بتمهيد يسير ومتلوّة بخاتمة.

أما الفصل الأول فيتناول قيمة القافية ووظائفها في البيت الشعري؛ وذلك من خلال ثلاثة مباحث:

ـ الأول: القيمة الصوتية والعروضية للقافية، وقد رصدها البحث من خلال مظاهر ثلاثة: المظهر الأول: الحساسية الصوتية والعروضية، والثاني: الوضوح السمعي والتركيز الصوتي، والثالث: خصوصية إنشاد القافية.

ـ المبحث الثاني: القيمة الدلالية للقافية ووظائفها في البيت. وقد حاول البحث بيان ذلك من خلال أربعة محاور:
المحور الأول: التركيز الدلالي للقافية، والثاني: صدع البنية النحوية وقيمته الدلالية، والثالث: الوقف على القافية وقيمته الدلالية، والرابع: القافية وتطوير البيت

دلاليا.

ـ المبحث الثالث: القيمة الإعلامية للقافية ووظائفها في البيت. وقد حاول البحث بيان ذلك من خلال أربعة محاور:
المحور الأول: إنشاء القافية وإنشادها، الثاني: استقبال القافية، الثالث: تكرار القافية بين الإيطاء والتوظيف الإعلامي، الرابع: أثر غياب القافية في إعلامية النص.

وأما الفصل الثاني فيتناول تأثير حركة الروي على بناء البيت. وذلك من خلال ثلاثة مباحث:
ـ المبحث الأول: تأثير حركة الروي على البناء النحوي.
ـ المبحث الثاني: العلاقة بين حركة الروي والعلامة الإعرابية.
ـ المبحث الثالث: القيمة الدلالية لحركة الروي بين الإطلاق والتقييد.

ويتناول الفصل الثالث دور القافية في تحقيق تماسك البيت. وذلك من خلال مبحثين:
ـ المبحث الأول: وسائل تحقيق تماسك البيت عن طريق القافية.
ـ المبحث الثاني: نماذج تحليلية لدور القافية في تماسك البيت.

ويعقب هذه الفصول خاتمةٌ أُجملت فيها أهم النتائج التي انتهى البحث إليها، ثم ثَبَتٌ بمصادر البحث ومراجعه.
وإن الباحث ليأمل أن تكون لهذه الدراسة قيمة ترقى بها إلى أن تكون خطوة ـ تنضم إلى خطىً قبلها كثيرة ـ نحو نظرية بنائية للشعر العربي تحاول كشف فلسفته الإبداعية انطلاقا من بنيته النحوية والعروضية.

وعلى الله قصد السبيل

فهرس المحتويات

المقدمة..... أ
التمهيد..... ١

الفصل الأول

قيمة القافية ووظائفها في البيت الشعري

المبحث الأول: القيمة الصوتية والعروضية للقافية ٤
.....
المظهر الأول: الحساسية الصوتية ٦
والعروضية.....
أولا: السناد وموقف العلماء منه ٩
ثانيا: الإكفاء وحقيقة وجوده في الشعر القديم ٢٢
ثالثا: الإقواء ٢٩
المظهر الثاني: الوضوح السمعي والتركيز الصوتي ٣١
.....
أولا: كثافة المدود ٣١
ثانيا: خصوصية الوقف على القافية ٣٣
المظهر الثالث: وجوه إنشاد القافية ٣٧
المبحث الثاني: القيمة الدلالية للقافية ووظائفها في البيت ٤١
.....
المحور الأول: التركيز الدلالي للقافية ٤٢
المحور الثاني: صدع البنية النحوية وقيمته الدلالية ٥٠
.....
أ: القيمة الدلالية لصدع البنية اللغوية ٥٢
ب: القيمة الدلالية للعوارض التركيبية خاصة ٥٤
المحور الثالث: الوقف على القافية وقيمته الدلالية ٦٠
* التضمين العروضي والوقف على القافية ٦٢
أ ـ حد التضمين وعلاقة الوقف به ٦٢
ب ـ مستويات التضمين ٦٧
جـ ـ دور الوقف في حل إشكالية التضمين الدلالية ٧٢
المحور الرابع: القافية وتطوير البيت دلاليا ٧٥
* رأي د.شكري عياد في وظيفة القافية ومناقشته ٧٧
.....
المبحث الثالث: القيمة الإعلامية للقافية ووظائفها في البيت ٨١
.....
المحور الأول: إنشاء القافية وإنشادها ٨٢

المحور الثاني: استقبال القافية ٩٠
* تقسيم أبي العلاء للقوافي تقسيما إعلاميا ٩٣
* قوة تذكر المتلقي للقافية ٩٥
* تلقي القافية بين التوقع والمباغتة ٩٧
المجموعة الأولى: عوامل التوقع ٩٨
المجموعة الثانية: عوامل المباغتة ١٠٤
المحور الثالث: تكرار القافية بين الإيطاء والتوظيف الإعلامي ١١٠
الصورة الأولى: تكرار القافية بلفظها ومعناها ١١٠
الصورة الثانية: تكرار لفظ القافية مع اختلاف المعنى ١١٣
* تحقيق مذهب الخليل في المشترك اللفظي الواقع في القوافي المتجاورة..... ١١٦
* قيمة تكرار لفظ القافية مع اختلاف معناها ١١٨
المحور الرابع: أثر غياب القافية في إعلامية النص ١٢٢
أولا: مواجهة النقاد لعيب الإكفاء ١٢٢
ثانيا: إخفاق تجربة الشعر المرسل ١٢٣

الفصل الثاني
تأثير حركة الروي على بناء البيت

توطئة ١٢٨
المبحث الأول: تأثير حركة الروي على البناء النحوي ١٢٩
القسم الأول: القافية المرفوعة ١٣٧
القسم الثاني: القافية المنصوبة ١٤٣
القسم الثالث: القافية المجرورة ١٤٩
المبحث الثاني: العلاقة بين حركة الروي والعلامة الإعرابية ١٥٣
الظاهرة الأولى: الترخص في العلامة الإعرابية لصالح حركة الروي ١٥٥
* من صور الترخص في العلامة لأجل اطراد حركة الروي ١٦٠
أولا: الترخص في علامة المضارع المعرب لأجل اطراد حركة الروي ١٦٠

ثانيا: الترخص في علامة الأمر والماضي لأجل حركة الروي ١٦٤
ثالثا: الترخص في حركة نون جمع المذكر السالم لأجل اطراد حركة الروي ١٦٥
رابعا: الترخص بعكس الإعراب لأجل اطراد حركة الروي ١٦٦
خامسا: الترخص بالنصب لأجل اطراد حركة الروي ١٧٠
سادسا: الترخص بالرفع لأجل اطراد حركة الروي..... ١٧٦
سابعا: الترخص بالجر لأجل اطراد حركة الروي..... ١٧٩
ـ حقيقة ما يعرف بـ(الجر على الجوار) ١٨٠
الظاهرة الثانية: الترخص في حركة الروي لصالح العلامة الإعرابية (الإقواء) ١٨٤
العامل الأول: اهتمام القدماء بوحدة البيت واستقلاله الدلالي ١٨٥
العامل الثاني:غياب الرؤية النقدية العلمية وشيوع الاحتكام إلى الأذواق الفردية.. ١٨٩
العامل الثالث: شفاهية الشعر الجاهلي ودور الرواة ١٩٤
العامل الرابع: إطلاق الشعر المقيد ١٩٩
المبحث الثالث: القيمة الدلالية لحركة الروي بين الإطلاق والتقييد ٢٠٥
المحور الأول: القيمة الصوتية للإطلاق والتقييد ٢٠٥
* وسائل توضيح القافية المقيدة سمعيا ٢١٤
المحور الثاني: التوظيف الدلالي للإطلاق والتقييد ٢١٩
أولا: التوظيف الدلالي للإطلاق ٢٢٠
ثانيا: التوظيف الدلالي للتقييد ٢٢٨

الفصل الثالث

دور القافية في تحقيق تماسك البيت

ـ القافية مفتاح تماسك البيت ٢٣٦
المبحث الأول: وسائل تحقيق تماسك البيت عن طريق القافية ٢٤١
أولا: وسائل سبك البيت عن طريق القافية ٢٤٣

.....
١. رد العجز على الصدر ٢٤٣
* علاقة رد العجز على الصدر بالجناس ٢٤٥
٢ . العكس والتبديل ٢٤٦
٣ . تشابه الأطراف ٢٤٧
ثانيا: وسائل حبك البيت عن طريق القافية ٢٤٩
١ . طباق الترديد ٢٤٩
٢ . التوشيح ٢٥٣
* العلاقة بين التوشيح والتصدير، وأثرها على دور كل منهما في التماسك **.....** ٢٥٦
٣ . الإيغال ٢٥٨
* حقيقة الإيغال، ودوره في الحبك ٢٦١
* آلية نقدية .. القافية بين تطوير الدلالة وغياب الحبك ٢٦٣
.....
المبحث الثاني: نماذج تحليلية لدور القافية في تماسك البيت ٢٦٩
.....
الخـاتمة ٢٨٢
ثبت المصادر والمراجع ٢٨٤
فهرس المحتويات ٣٠٣

تمهـــيد

تتردد في مصادر اللغة والأدب تعريفات مختلفة للقافية ـ تصل في بعضها إلى عشرة تعريفات[١] ـ ، ولكن المحققين من العلماء يتوقفون بالقبول أمام تعريفين:

الأول: تعريف الخليل؛ وهو أن القافية «ما بين آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن»[٢].
والثاني: تعريف الأخفش؛ وهو «أن القافية آخر كلمة في البيت»[٣].

يقول ابن رشيق: «فعلى هذين القولين مدار الحذّاق في معرفة القافية»[٤]، ويقول التبريزي بعد أن سرد تعريفاتٍ للقافية مختلفة: «والجيد المعروف من هذه الوجوه قول الخليل والأخفش»[٥].

وهذا القبول لتعريفي الخليل والأخفش يطرح تساؤلا منهجيا عن حجم الاختلاف الحقيقي بين المفهومين. فهل يختلف الأخفش مع أستاذه حقا؟

إن تأمل كتاب (القوافي) للأخفش ـ وبخاصة صفحاته الأولى ـ يفضي بنا إلى الحقائق الآتية:ـ

أولا: يتفق الخليل والأخفش في تحديد حروف القافية وحركاتها الملتزمة وما لها من شروط وضوابط بشكل عام. وهذا دليل على اتفاق النظرة الإجرائية إلى حدود القافية بين الرجلين.

ثانيا: ذكر الأخفش تعريف الخليل دون أن يعترض عليه، ومع ذلك عرّف القافية تعريفا مختلفا. وهذا يدل على أن اختلاف التعريفين ليس اختلافَ تضاد بل هو اختلافٌ سائغ اختلفت فيه جهتا النظر؛ فالخليل حين حدد القافية نظر إلى المقطع الصوتي اللازم التكرار في كل بيت، أما الأخفش فنظر إلى الوحدة المعجمية الدلالية التي تشتمل على هذا المقطع الصوتي الملتزَم؛ لعضويتها الدلالية في البناء الشعري، مستندا في هذا إلى صنيع الشعراء، الذين لا يبنون البيت على حدود القافية المقطعية بل على كلمتها الأخيرة لأنها ـ على الأقل ـ وحدة دلالية. ولهذا كان مما علّل به الأخفش تعريفه أنه «لو

---

[١] شرح مقدمة ابن الحاجب للمرادي ص٢٠٧: ٢١٠، وانظر: العمدة١/٢٤٣ وما بعدها، والمختصر الشافي لابن القطاع ص٦.

[٢] قوافي الأخفش ص٦.

[٣] السابق ص١.

[٤] العمدة١/٢٤٤ .

[٥] الكافي ص١٤٩.

قال لك شاعر: اجمع لي قوافي، لم تجمع له أنصافا، وإنما تجمع له كلمات، نحو: غلام وسلام»[٦]، وأضف إلى هذا «أن الكلمة الأخيرة تتضمن غالبا ما يُلزم نظامُ الشعر بترديده في كل بيت في القصيدة»[٧].

ثالثا: اعترض ابن رشيق على الأخفش ـ واعتراضه مشهور ـ بأن تعريفه للقافية يقتضي أحد أمرين في نحو قول المتنبي:

حتى إذا لم يدع لي صدقه شرِقت بالدمع حتى كاد يشرقُ بي

أملا

إما أن يجعل القافية هي الكلمة الأخيرة «بي» وبهذا يكون «قد رجع إلى قول من جعل القافية حرف الروي، وهو خلاف مذهبه»، **وإما** أن يجعل القافية «يشرق بي» وبهذا يرجع «ضرورة إلى مذهب الخليل وأصحابه»[٨].

ولا يَرِد هذا على الأخفش؛ أما الاحتمال الأول فلا يقول به الأخفش، وهو خلاف مذهبه حقا، ولقد هاجم القائلين به في مفتتح كتابه وفنّد رأيهم[٩].

وأما الاحتمال الثاني فلا مانع منه حقيقة؛ لأن الأخفش لا يرفض تعريف الخليل أصلا، ولأن ظاهر تعريفه للقافية وما مثّل به يدل على أنه يعني بالكلمة الأخيرة كلمةً تمثل وحدة دلالية، أو بعبارته: «كلمات نحو غلام وسلام» مما يبني عليه الشعراء أبياتهم، وواضح أن الشاعر هنا يبني بيته على «يشرق بي» لتحديدها الدلالي، لا على «بي» وحدها.

وإذا كان تعريف الخليل هو الأدق عروضيا فإن تعريف الأخفش هو الأنسب دلاليا لهذه الدراسة، لأن قراءة الشعر وتلمّس جوانبه البنائية والدلالية تقتضي التعامل مع (كلمة القافية)، بوصفها وحدة معقدة التكوين تمثل بؤرة نشطة ذات تأثير عضوي متشابك على بناء البيت النحوي وحركته الدلالية ووظائفه الاتصالية، مع مراعاة حدود القافية المقطعية ومكوناتها من الحروف والحركات الملتزَمة التي تمثل قيمة صوتية دالة وبالغة الخصوصية في نسيج البيت، على نحو ما سيحاول البحث إلقاء الضوء عليه.

وقد اعتمد البحث في شواهده ونماذجه على شعر البيت دون شعر التفعيلة؛ لأن القافية في شعر التفعيلة لا موضع لها ثابتا؛ وذلك لتذبذب طول البيت، وضياع حدوده

---

[٦] قوافي الأخفش ص٥.

[٧] الجملة في الشعر العربي ص١٠٠ .

[٨] العمدة ١/٢٤٤. ٢٤٥ .

[٩] القوافي ص١: ٧ .

تماما ـ في بعض الأحيان ـ عندما يهمل بعض شعراء التفعيلة القافية أصلا، وكثيرٌ ما هم. وهذه الحرية في اختتام البيت تؤدي إلى تضاؤل تأثير القافية على بناء البيت النحوي بغياب موضع الوقف الثابت الذي يوجه حركة إنتاج البيت الشعري في ذهن الشاعر، كما تُفقدها كثيرا من قيمتها الصوتية والدلالية والإعلامية التي تتعلق بثبات نظام تكرارها ـ كما سيأتي ـ .

الفصل الأول

قيمة القافية ووظائفها في البيت الشعري

المبحث الأول
القيمة الصوتية والعروضية للقافية

القافية ركن أساسي في البناء الموسيقي للبيت، لا يمكن الاستغناء عنه، وعلى الرغم من كونها جزءا من كمّ الوزن فإن لها خصوصية نوعية، وثمة رواية دالة نفتتح بها الخوض في هذا الصدد يرويها ابن رشيق بعد أن تحدث عن الإشارات الجسمية ودورها السياقي في الشعر، فيقول: «وقد جاء أبو نواس بإشارات أُخَر، لم تجر العادة بمثلها، وذلك أن الأمين ابن زبيدة قال له مرة: هل تصنع شعرا لا قافية له؟ قال: نعم، وصنع من فوره ارتجالا:

ولقد قلت للمليحة من بعيد لمن يحبك...(إشارة قبلة)
قولي
فأشارت بمعصم ثم من بعيد خلاف قولي...(إشارة لا لا)
قالت
فتنفست ساعة ثم قلت للبغل عند ذلك...(إشارة امش)»
إني

(١)

والنكتة هنا أن موسيقى القافية تسيطر على الشاعر فلا تستسيغ ذائقتُه إهمالَها، فقد طلب الخليفة شعرا بلا قافية؛ رغبة في إعنات الشاعر، الذي لم يمكنه إهمال القافية حقيقة، وإنما استعاض عن كلمات اللغة المألوفة بأصوات تعادلها كميا ـ كما يُفهم من تكرار (لا) في البيت الثاني ـ وهي أصوات غير لغوية مشهورة أقربها للوصف صوت زجر البغل وغيره من الركائب الذي يشيع استعماله بين المكارين والحوذيّة، ثم هي متقاربة فيما بينها صوتيا تصلح للتوازي في هذا الموقع لاحتفاظها بالتشابه الكيفي الذي تحتاجه القافية.

والمؤكد أن القافية تمثل النهاية الحساسة للعقدة العصبية الإيقاعية في البيت الشعري، فالشاعر يقوم في خلال البيت بعملية استبدال دقيقة للمفردات على كافة المستويات اللغوية، وهذا الاستبدال تحكمه أربعة عناصر ـ كما يقرر د. محمد حماسة ـ هي: الوزن، والتوازي المقطعي للمفردة، ومجالها الدلالي، ووظيفتها النحوية[٢]، «ويشتد أمام الشاعر مجال الاستبدال ضيقا عندما يصل إلى الكلمة الأخيرة في البيت وهي القافية، لأنها تتطلب زيادة على العناصر الأربعة المذكورة عنصرين إضافيين هما: التكرار المقطعي الذي تفرضه الكلمة الأخيرة في مطلع القصيدة ... والتماثل الحركي في أجزاء معينة من هذا المقطع الموحد، ويمكن إدراج هذين النوعين تحت ما

---

(١) العمدة ١/٥١٠ .

(٢) انظر: الجملة في الشعر العربي ص٩٣ .